حولية الكوفة

دورية سنوية محكمة، تعنى بالدراسات والبحوث التراثية والمعاصرة المتخصصة بشؤون مدينة الكوفة ومسجدها المعظم
تصدر عن أمانة مسجد الكوفة والمزارات الملحقة به . العدد الثاني . شهر رمضان ١٤٣٣هـ / آب . ٢٠١٢م

٢

مرقد الشهيد مسلم بن عقيل عليه السلام سنة ١٩٣٥م

ديوان الوقف الشيعي
أمانة مسجد الكوفة
والمزارات الملحقة به

المشرف العام
السيد موسى تقي الخلخالي

رئيس التحرير
د. كامل سلمان الجبوري

صور ونصوص

من المفاخرات بين البصرة والكوفة
وما قيل عنهما في كتب التراث العربي

الأستاذ الدكتور محمد كريم الشمري
عميد كلية الآداب / جامعة القادسية

الخلاصة:

يركز البحث على إبراز ظاهرة المنافسة بين المدن والأمصار العربية الإسلامية، من خلال المفاخرات التي تعد جزءاً عريقاً من تراثنا العربي، تمتد جذوره إلى أيام العرب قبل الإسلام، حيث كانت المفاخرات بين القبائل العربية، التي افتخرت بالشجاعة والكرم والنخوة والأصل القبلي... واتخذت المفاخرات منحىً جديداً بعد ظهور الإسلام وبناء الأمصار العربية الإسلامية خارج حدود شبه الجزيرة العربية، بدءاً من البصرة والكوفة حيث شكّلا تاريخ القرن الأول الهجري، وكان لكل مدينة منهما دورٌ سياسيٌ وفكريٌ، وامتدت المنافسة بينهما إلى احتضان كل مدينة أجيالاً من العلماء والمفكرين في شتى صفوف العلم والمعرفة.

ألّف عدد من المؤلفين العرب والمسلمين مؤلفات عديدة في مجال المفاخرات التي تخص مدينتي البصرة والكوفة، لكن معظمها مفقود في الوقت الحاضر، كما أن كتب التراث العربي الإسلامي المتنوعة زاخرة بالكثير من القصص والحكايات والنصوص التي تضمنت هذه المفاخرات، واعتمد البحث عليها اعتماداً رئيساً، لإبراز هذه المنافسة التي تعزز دور هتين المدينتين في تاريخنا وتراثنا العربي – الإسلامي، باقتباس النصوص والحكايات التي قيلت في مناسبات عديدة، فضلاً عن الإشارة إلى أهم المؤلفات في هذا الحقل من المعرفة التاريخية التراثية.

المقدمة:

برزت ظاهرة المنافسة بين المدن والامصار العربية ـ الاسلامية؛ تبعا لأدوارها السياسية والفكرية ولأهميتها الاقتصادية وموقعها الجغرافي، وتعد هذه المنافسة ظاهرة حضارية إيجابية أغنت الأفق الفكري خلال تلك المرحلة التاريخية؛ لأنها حرّكت اهتمامات كتّاب ومفكري كل مدينة من المدن إلى أن يكتبوا ويصنفوا المصنفات عنها، بما يتلاءم وإبراز الجوانب المشرقة لكل منها ازاء المدينة الأخرى.

لم تقتصر هذه الظاهرة على صعيد الكتابة التاريخية عن المدن فحسب، بل تجاوزت ذلك على الصعيد العام في المناقشات والحوارات والمجالس الثقافية، ولعب الخلفاء والأمراء والولاة دوراً مهماً في تطويرها وتنميتها، ومنها تلك المجالس والمناظرات بين أهل البصرة والكوفة في حضرة الخلفاء الأمويين والعباسيين من بعدهم، أمثال عبد الملك بن مروان وأبي العباس السفاح وأبي جعفر المنصور وغيرهم.

لقد ألف عدد من المؤرخين والكتاب مؤلفات متنوعة، تراوحت بين رسائل صغيرة وكتب كبيرة، في بيان فضائل مدنهم، اشتملت على آيات من كتاب الله العزيز، إدعوا أنها نزلت في معنى فضائل ذلك البلد، فضلاً عن أحاديث للرسول الكريم (ص) عن صلاح ومحاسن أهله، وفي تلك المؤلفات كذلك مفاخرات ومهاجاة مع مدينة أو اقليم آخر، وهذا ما يشبه أدب المدح والذم الذي اهتم به بعض المؤلفين من الجغرافيين وأهل الأدب وغيرهم.

في بحثنا هذا عرضنا نماذج من التراث العربي ـ الاسلامي على هيأة نصوص وأفكار تتعلق بالمفاخرات والمباهاة، فضلاً عن المهاجاة وبيان العيوب والمساوئ، بين أهل البصرة والكوفة، ونصوصاً عمّا قيل عنهما مستقاة من عيون المؤلفات التراثية؛ لابراز أهمية كل منهما في تاريخنا وتراثنا العربي ـ الاسلامي. واقتضت الضرورة أن يعرض هؤلاء المؤلفون الجوانب الايجابية للمدينة التي ينتسبون إليها ومقارنتها بمدينة أو مِصر آخر.

١. بين يدي البحث:

كانت البصرة والكوفة المصرين الوحيدين في العراق، تم تأسيسهما خارج شبه الجزيرة العربية في عهد الخليفة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، ومن الطبيعي جداً أن تقوم بينهما علاقات متينة

ومستمرة منذ تمصيرهما، فكانت الحوادث التي تقع في الكوفة سرعان ما تجد صداها في البصرة، والعكس صحيح، واتجه عدد من الكوفيين للاستقرار في البصرة؛ نظراً لتدهور الاحوال السياسية في الكوفة، فضلاً عن الرغبة في الكسب والربح من خلال الاشتغال في التجارة، كما اتخذ عدد من البصريين الكوفة مدينة لهم ومقاماً؛ لأنها عاصمة الدولة العربية- الاسلامية لمدة خمس سنوات بعد انتقال الخليفة علي بن أبي طالب (عليه السلام) من المدينة إليها، فأصبحت مركزاً للفقه والحديث واللغة وقراءة القرآن ورواية الشعر والأدب، وليس غريباً أو مبالغة أو مجانبة للحقيقة القول أن التاريخ العربي - الاسلامي خلال القرن الأول الهجري/ السابع الميلادي، هو تاريخ مدينتي البصرة والكوفة (العراقين)؛ لما لعبا من أدوار سياسية وعسكرية وإدارية مهمة جداً، كما ليس غريبا القول أن هذين المصرين اقتسما الحركة الفكرية العربية خلال ذلك القرن، إذ أسهما في تاسيس المدارس النحوية والأدبية التي عرفت باسميهما، وهما: مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة.[1]

وبالمقارنة بين أكبر مدينتين من معسكرات الاسلام في عهده الأول، وهما: البصرة والكوفة، نجد أن الكوفة أكثر عروبة من أختها البصرة، وأكثر منها تاثراً بالأوضاع السياسية؛ لأنها ضمت عناصر اجتماعية أكثر عدداً، فقد استقر فيها الفاتحون المنتصرون في القادسية والمدائن وجلولاء، أي أولئك الذين سارعوا إلى تلبية نداء الجهاد من اليمن والحجاز وسواد الفرات، وخلال الثلاثين سنة الأولى من الهجرة كانت الكوفة هي المصر لا تضاهيها مدينة أخرى، كانت قبة الاسلام ورأس العرب، جعلها الخليفة عمر(رضي الله عنه) مركزاً لتنظيماته العسكرية والمالية، أما البصرة فلم تلعب دوراً مهماً إلا في خلافة عثمان بن عفان (رضي الله عنه)، وبدأت كذلك في منافسة الكوفة.[2]

وهكذا تتضح لنا بجلاء أهمية كل من البصرة والكوفة في مصادرنا العربية والاسلامية، فالمعروف أنهما يعدان من أوائل الأمصار الإسلامية القديمة التي اسسها العرب خارج شبه الجزيرة العربية، وقد ارتبطا ارتباطاً قوياً، بحيث صار يطلق عليهما من قبل المؤلفين العرب، اسم: العراقين أو المصرين، فالعراقان هما البصرة والكوفة، يقول الرازي[3]: «... من العراق الكوفة[4] والبصرة وبغداد، والذي يقول الناس: العراقين، فالعراقان الكوفة والبصرة». وذكروا ولاة كل مدينة منهما، فانهما كانتا منفصلتين ومتمايزتين، فذكروا ولاة خراج كل منهما، وأشاروا إلى وجود سوادين متمايزين، هما: سواد البصرة وسواد الكوفة، وكان لكل منهما ديوانه الخاص، اي: ديوان البصرة وديوان الكوفة[5].

زخرت كتب الأدب والتراث بأمثلة للمفاخرات التي كانت بين أهل البصرة والكوفة في حضرة الخلفاء، من ذلك ما نقله د. ناجي[6] عن المدائني حول قصة تتعلق بخالد بن صفوان البصري- وهومن الخطباء المشهورين كما سنوضح - حينما ترأس وفد أهل البصرة لزيارة الخليفة عبد الملك بن مروان، وكان في حضرة الخليفة مجموعة من الوفود التي تمثل أهالي المدن والامصار الأخرى؛ بغية افتتاح أو مشاهدة بعض المنشآت التي اتخذها الخليفة في بلاد الشام، وقد وجهت أسئلة إلى زعماء الوفود عما إذا كان مثل تلك المنشآت (المصانع) موجوداً في أمصارهم، فتوجه بالسؤال أولا إلى وفد أهل مكة الذي أجاب بالنفي، بعدها توجه بالسؤال إلى وفد أهل الكوفة فاجاب بالنفي أيضاً، ثم توجه بالسؤال إلى وفد أهل البصرة، فاجاب خالد بن صفوان قائلاً: «أصلح الله الأمير! إن هؤلاء- أي زعماء الوفود - أقروا على بلادهم ولو أن عندك من له ببلادهم خبرة لأجاب عنهم، قال: أفعندك في بلادك غير ما قالوا في بلادهم؟، قال: نعم، أصلح الله الأمير، أصف لك بلادنا، قال: يغدو قانصنا فيجيء هذا بالشبوط والشيم ويجيء هذا بالظبي والظليم، ونحن أكثر الناس عاجاً وساجاً وخزاً وديباجاً وبرذوناً هملاجاً وخريدة مغناجاً، بيوتنا الذهب، ونهرنا العجب أوله الرطب وأوسطه العنب وآخره القصب... الخ الوصف، فقال له الأمير: أنى لكم هذا يا ابن صفوان ولم تغلبوا عليها ولم تسبقوا إليها؟ فقال: ورثناها عن الآباء ونعمرها للأبناء ويدفع لنا عنها رب السماء...».

ذكر الجاحظ[7] نصاً آخر بخصوص قول خالد بن صفوان، عندما سئل عن الكوفة والبصرة، فقال: «نحن منابتنا قصب، وأنهارنا عجب، وسماؤنا رطب، وأرضنا ذهب». وذكر

(١) الزبيدي. الحياة الإجتماعية والاقتصادية في الكوفة ص٢٩١، ناجي. دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية ص١٥٥، ٢٣٢.

(٢) جعيط. اليمنيون في الكوفة ص٧-٨، ناجي. اسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية ص٤٧.

(٣) تاريخ مدينة صنعاء ص٦٧، إبراهيم. البصرة في نصوص تاريخ مدينة صنعاءص٤٥. وورد ذكر العراقان، وهما البصرة والكوفة. ابن عبد ربه. العقد الفريد، ج٦، (كتاب طبائع الإنسان والحيوان)، تحت عنوان: تفاضل البلدان ص٣٦٩.

(٤) في النص: والكوفة، وحذفنا الواو لاستقامة المعنى.

(٥) العلي. خطط البصرة ومنطقتها ص٢٣٥-٢٣٦، راجع عن سواد البصرة والكوفة: ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٦/ ٢٦٤، إحالة رقم: ٦٨ وهامشها من بحثنا هذا.

(٦) الحموي. معجم البلدان، مجلد ٤٣٨/١، راجع أيضاً: ناجي. اسهامات ص٢٣٣.

(٧) البيان والتبيين، مجلد ١، ج٢/ ٤٥٧-٤٥٨.

الجاحظ[1] أيضاً في رواية أخرى أن أبا بكر الهذلي كان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً بالأخبار والآثار، وهو الذي لما فاخر أهل الكوفة، قال: «لنا الساج والعاج والديباج والخراج والنهر العجاج». وروى الجاحظ[2] ذلك بصيغة أخرى، فقال: «وقال أبو بكر الهذلي: نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً وديباحاً وخراجاً ونهراً عجاجاً». ويتضح أن كل هذه النصوص تصف وتوضح طبيعة بيئة البصرة وكثرة خيراتها التي تستحق الفخر والاعتزاز، من الرطب والقصب والعنب وصيد النهر والبحر والبادية وكثرة الأخشاب والأشجار المنتشرة على تفرعات شط العرب الكثيرة.

٢. صور ونصوص من مفاخرات أهل البصرة والكوفة:

اختزنت كتب التراث العربي الإسلامي- خصوصاً المؤلفات الأدبية-كنوزاً من العبر والحكم والحكايات البليغة، التي تدلل على غنى وثراء تراثنا العربي الخالد، وسنعرض نماذج من تلك الكنوز الثمينة المتعلقة بالمفاخرات بين أهل البصرة والكوفة.

روى الجاحظ[3] مفاخرة بين بصري وكوفي، تفاخرا بعدد أشراف أهل البصرة وأشراف أهل الكوفة، فقال البصري للكوفي: «هات في أربع قبائل الكوفة مثل أربعة رجال بالبصرة في أربع قبائل: في تميم الكوفة مثل الأحنف، وفي بكر الكوفة مثل مالك بن مسمع، وفي قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم، وفي أزد الكوفة مثل المهلب [بن ابي صفرة].

فقال الكوفي: مِخنف بن سُليم من أزد السراة، وهم أشرف من أزد عُمان. فقال البصري: إنا لم نكن في شرف القبائل وفرق ما بينهما[4]، فانما ذكرنا المهلب بنفسه، وما علمت أن أحداً يبلغ من جهله أن يفخر بمخنف بن سليم فيفضله على المهلب، وأخملَ رَجل من ولد المهلب أشهر في الولايات وفي الفرسان وفي الناس من مخنف. والمهلب رجل ليس له بالعراق نظير يقاومه، ومناقبه وأيامه وفتوحه أكثر وأشهر من أن يجوز لنا أن نجعله إزاء مخنف. وما زالوا يقولون: «بصرة المهلب». ولو لم يكن للمهلب إلا أنه ولد يزيد بن المهلب كان كافيا. ونحن إذا قلنا: ليس في قيس الكوفة مثل قتيبة بن مسلم، قال قائل: فزارة أشرف من باهلة. قلنا: ليس هذه معارضة؛ فإنما المعارضة أن تذكر أسماء بن خارجة ثم تقول ونقول، فنذكر فتوح قتيبة العظام، والشهامة والنفس الأبية، والشجاعة والحزم والرأي، والوفاء، وشرف الولاية، ونذكر سؤدد أسماء، وجوده ونواله. فاما ان نتخطى أنفسهما إلى قبائلهما كما تخطيت بدن المهلب وبدن مخنف الى أزد عمان وأزد السراة، فهذا ليس من معارضة العلماء.

وكذلك إذا ذكرنا عُبّاد البصرة وزهادها ونُسّاكها فقلنا: لنا مثل عامر بن عبد القيس، وهرم بن حيان، وصلة بن أشيم. قلت: فعباد الكوفة: أويس القرني، والربيع بن خثيم، والأسود بن يزيد والنخعي. وهذا جواب.

فاما أن تذكر طِيب الدنيا والتمتع من لذاتها وصفات محاسنها، وتذكر ظرفاءها وأربابها، وتجيئنا باحاديث الزهاد والفقهاء، فقد انقطع الحِجاج بيننا وبينك».

يتضح لنا من نص هذه المفاخرة ان البصري تفاخر على الكوفي بأربعةرجال ينتمون إلى أربع قبائل، كما تفاخر بعُباد البصرة وزُهادها ونُساكها، وأن البصري عدّ نفسه متفوقاً على الكوفي الذي لم يستطع أن يفاخره برجال من الكوفة بمستوى رجال البصرة الذين ذكرهم، بمعنى أن البصري افحم الكوفي وانتصر عليه في كسب هذا الرِهان.

روى ابن قتيبة الدينوري[5] مفاخرة طريفة بين أهل البصرة واهل الكوفة في مجلس الأمير الأموي يزيد بن عمر بن هبيرة في الكوفة، حول شهرةالمدينتين بأنواع متميزة من التمر (الرطب)، فذكر أن أهل العراق اجتمعوا ليلة في مجلس سمر أقامه يزيد بن عمر بن هبيرة الذي قال: «أي البلدين أطيب ثمرة: الكوفة أم البصرة؟ فقال خالد بن صفوان: بل ثمرتنا أيها الأمير منها الأزاد والمعقلي وكذا وكذا. فقال عبد الرحمن بن بشير العجلي: لست أشك أيها الأمير أنكم قد اخترتم لأمير المؤمنين ما تبعثون به إليه. قال: أجل، قال: قد رضينا باختيارك لنا وعلينا. قال: فاي الرطب تحملون إليه؟ قال: المشان. قال: ليس بالبصرة منه واحدة. ثم قال أية؟ قال: السابري. قال: ولا بالبصرة منه واحدة. قال خالد بن صفوان: بلى عندنا بالبصرة منه شيء يسير. قال: فاي التمر تحملون إليه؟ قال: النرسيان. قال: ولا بالبصرة منه واحدة. قال: ثم أية؟ قال: الهَيرُون أزاذ. قال: ولا بالبصرة منه واحدة. قال فاي القَسب تحملون إليه؟ قال: قسب العنبر. قال: ولا بالبصرة منه واحدة. قال ابن هبيرة لخالد: إدّعى عليك خمساً فشاركته في واحدة وسلمت له أربعاً، ما أراه إلا قد غلبك».

---

(١) المصدر نفسه ص ٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه ص٤٥٨، راجع أيضاً: ابن قتيبة الدينوري. عيون الأخبار مجلد ٢٤٩/١.

(٣) رسائل الجاحظ، ج٢، كتاب مفاخرة الجواري والغلمان، ص١١٧-١١٩.

(٤) أي بين أزد السراة وأزد عمان، أولعلها:((بينهما)) أي بين القبائل. رسائل الجاحظ ١١٧/٢.

(٥) عيون الأخبار مجلد ٢٥٢/١.

يتضح لنا من نص المفاخرة بين خالد بن صفوان البصري وعبد الرحمن بن بشير العجلي المتحدث عن أهل الكوفة في مجلس أمير العراق يزيد بن عمر بن هبيرة، في عهد آخر خلفاء بني أمية مروان بن محمد بن عبد الملك، ان المفاخرة كانت حول أنواع التمور التي اشتهرت بها البصرة والكوفة، وأن الأمير يزيد إنما أراد إرسال هدية مناسبة من أنواع هذه التمور المتميزة، وكانت المفاخرة في صالح أهل الكوفة من خلال ما ذكر ممثلها عبد الرحمن بن بشير العجلي من أنواع متميزة للتمور فيها، وهي: المشان، السابري، النرسيان، الهيرون ازاذ، قسب العنبر، وهذه الأنواع الخمسة هي أجود أنواع التمور، التي تميزت بها مدينة الكوفة، في حين أن البصرة لا يوجد فيها من هذه الأنواع سوى السابري، لذا كانت النتيجة لصالح أهل الكوفة، كما يتضح من قول يزيد بن هبيرة مخاطباً خالد بن صفوان بأن ممثل الكوفة ادعى عليه خمسة أنواع، وأنه لم يشاركه إلا في واحدة، في حين اعترف خالد بوجود نوع واحد فقط منها في البصرة، وهو تمر السابري، وبذلك انتصر ممثل الكوفة في هذه المفاخرة.

في حديث السمعاني[1] عن نسبة الهَمداني، ذكر أنها بفتح الهاء وسكون الميم والدال المهملة، هي منسوبة إلى همدان قبيلة من اليمن نزلت الكوفة، وهي: همدان بن أوسلة، وهمدان بن مالك بن زيد بن أوسلة بن ربيعة، كما روى السمعاني عن أبي علي الغساني أن همدان اسمه: أوسلة بن خيار بن كهلان بن سبأ، وفي همدان بطون كثيرة منها: سبيع ويام ومرهبة وارحب، وفي كل بطن جماعة.

روى السمعاني أنه سمع أبا الغنائم المسلم بن نجم المزني الكوفي في سمرقند، يتحدث عن مفاخرة بين أهل الكوفة وأهل البصرة، اذ يقول: «فاخرت أهل الكوفة أهل البصرة، حتى وقعوا في القبائل، فكل قبيلة ذكرها أهل الكوفة ذكر أهل البصرة أن جماعة من هذه القبيلة نزلت بالبصرة منهم طائفة أيضاً، حتى وصل أهل الكوفة الى همدان، فسكت أهل البصرة واعترفوا ان ليس بالبصرة من بني همدان أحد».

وروي أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، قال:

فلو كنت بوّاباً على باب جنة
لقلت لهمدان ادخلي بسلام[2]

(١) الأنساب ج٥/ ٦٤٧، راجع أيضاً: الشمري. استقرار قبيلة همدان في الكوفة ص١١١.

(٢) وقيل في رواية أخرى أن هذا البيت ورد بصيغة مغايرة، هي:

إذا كنت بواباً على باب جنة
أقول لهمدان أدخلوا بسلام

راجع: كتاب الأنساب للسمعاني ج٥/ ٦٤٧ هامش.

يتضح لنا من هذه الرواية أن الكوفة فازت على البصرة في مجال مفاخرة كل منهما بالقبائل المستقرة فيها، ويرجع فوز الكوفة على البصرة الى وجود قبيلة همدان فيها، في حين لم تكن البصرة قد حظيت بوجود هذه القبيلة العربية اليمانية، التي كان لها مكانتها المتميزة عند أمير المؤمنين الخليفة علي بن أبي طالب (عليه السلام)، كما يتضح في البيت الشعري المذكور أعلاه.

وقال ابن عياش الهمداني (المنتوف) لأبي بكر الهذلي، يوم فاخرَه عند أبي العباس (السفاح): إنما مثل الكوفة مثل اللهاة[3] من البدن يأتيها الماء ببرده وعذوبته، والبصرة بمنزلة المثانة ياتيها الماء بعد تغيره وفساده.[4] وسُئل خالد بن صفوان عن الكوفة فقال: نحن أبعد منكم سرية وأعظم منكم بحرية واغذى منكم برية.

وقال ابو بكر الهذلي: نحن أكثر منكم ساجاً وعاجاً وديباجاً وخراجاً ونهراً عجاجاً.[5]

ومن خطباء هذيل أبو بكر الهذلي، وكان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً بالأخبار والآثار، وهوالذي لما فاخر أهل الكوفة قال: «لنا الساج والعاج والديباج والخراج والنهر العجاج».[6]

وقال خالد بن صفوان، وسئل عن الكوفة والبصرة: نحن منابتنا قصب، وأنهارنا عجب، وسماؤنا رطب، وأرضنا ذهب.

وقال الأحنف (بن قيس): نحن أبعد منكم سرية، وأعظم منكم بحرية، وأكثر منكم ذرية، وأعذى[7] منكم برية.[8]

٣. خطباء البصرة والكوفة:

اشتهرت البصرة بعدد من الخطباء، ممن ذكرتهم كتب التراث والأدب، ودونت أقوالهم الماثورة وما احتوته من حكمة وبلاغة عربية أصيلة. ياتي في طليعة خطباء أهل البصرة المشهورين: خالد بن صفوان بن الأهتم، وهو من أسرة خطباء، فمن الخطباء والده صفوان بن عبد الله بن الأهتم، وكان خطيباً

(٣) هي اللحمة المشرفة في الحلق. هامش عيون الأخبار للدينوري ٢٥٢/١.

(٤) الدينوري. عيون الأخبار ٢٥٢/١، ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٦/٢٦٥.

(٥) المصدر نفسه ٢٤٩/١، راجع عن قول الهذلي أيضاً: الجاحظ. البيان والتبيين مجلد ١، ج٢/٤٥٨.

(٦) الجاحظ. البيان والتبيين، مجلد ١، ج٣٣٣/١.

(٧) اعذى من العذاة وهي الارض الطيبة التربة. السندوبي محقق البيان والتبيين مجلد (١) جزء (٢) هامش ص٤٥٨.

(٨) المصدر نفسه مجلد ١، ج٤٥٧/٢-٤٥٨. راجع عن هذا النص- مع بعض الاختلاف: الجاحظ. كتاب البلدان ص٤٩٧، رسائل الجاحظ (الأوطان والبلدان)، ج٤، ق١٣٨/٢، وسبق أن ذكرنا أن هذا القول لخالد بن صفوان. الدينوري. عيون الأخبار ٢٤٩/١.

رئيساً، وابنه خالد وفد إلى هشام بن عبد الملك، وكان من سمار أبي العباس السفاح[1]، فضلاً عن أن عبد الله بن الأهتم جد خالد، كان خطيباً، ذكر الجاحظ[2] خطبة عبد الله بن الأهتم، ونقل عن خالد بن صفوان، قال: «دخل عبد الله بن الأهتم على عمر بن عبد العزيز رحمه الله...».

ومن الخطباء المشهورين في العوام، والمقدمين في الخواص، خالد بن صفوان الأهتمي، زعموا أنه كان عند أبي العباس السفاح، ومن سماره وأهل المنزلة عنده.[3] وهو خالد بن صفوان بن عبد الله بن الأهتم، كان خطيباً بليغاً ولسناً مبيناً حسن السمر والمنادمة، وكان بخيلاً مطلاقاً، يجالس عبد العزيز وهشام بن عبد الملك، ولد ونشأ بالبصرة وكان أيسر أهلها مالاً. عاش إلى أن أدرك خلافة السفاح العباسي، توفي في عهده سنة١٣٣هـ/ ٧٥٠م.[4]

وخالد بن صفوان من حلماء تميم،[5] وكنيته: أبو صفوان.[6] وكان خالد بن صفوان يَشبّه بـ عبد الله بن عروة بن الزبير، ولم يكن في الخطباء أحد أجود خطباً من خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة[7]، وإذا قيل الخالدان، يراد بهما: خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة، واستعمل التغليب على سنة العرب، كما يقولون عن أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما): العُمَران، وعلى الشمس والقمر: القمران.[8] وكان يقال: لولا أنهما أحلم تميم لتباينا تباين النمر والأسد.[9]

كان خالد بن صفوان جميلاً، ولم يكن بالطويل، فقالت له إمرأة: إنك جميل يا أبا صفوان. قال: وكيف تقولين هذا وما فيّ عمود الجمال ولا رداؤه ولا برنسه؟ فقيل له: ما عمود الجمال؟ قال: الطول، ولست بطويل! ورداؤه البياض ولست بأبيض! وبرنسه سواد الشعر، وأنا أشمط! ولكن قولي: إنك لمليح ظريف.

يعد خالد في الصلعان، ولكلامه كتاب يدور في أيدي الوراقين.[10] وقد ذكرنا أمثلة من أقواله وخطبه، منها قوله عندما سئل عن الكوفة[11] أو عن الكوفة والبصرة للمفاخرة بينهما.

(١) الجاحظ. البيان والتبيين مجلد ١، ج ٣٣٢/١.
(٢) المصدر نفسه ص٤٨٣.
(٣) المصدر نفسه ص٣١٨-٣١٩.
(٤) حسن السندوبي، محقق البيان والتبيين للجاحظ مجلدا، ج ٣٧/١-٣٨ هامش.
(٥) الجاحظ. البيان والتبيين مجلدا، ج ٥٩/١.
(٦) المصدر نفسه ص١٧٣، ٣٢٠.
(٧) المصدر نفسه ص ٣٠١.
(٨) حسن السندوبي. البيان والتبيين مجلد (١)، ج ٣٨/١هامش.
(٩) الجاحظ. البيان والتبيين مجلدا، ج ٥٩/١.
(١٠) المصدر نفسه مجلدا ج ٣٢٠/١.
(١١) راجع إحالة (٧) وهامشها، إحالة رقم (١٦) وهامشها من بحثنا هذا. وعن خطبه ومفاخراته عن البصرة راجع: الإحالات رقم: ٦، ١٢، ١٨ وهوامشها.

تفاخر ناس من بني الحارث بن كعب، عند الخليفة أبي العباس السفاح، وأكثروا في القول، فقال أبو العباس: لم لا تتكلم يا خالد؟ فقال: أخوال أمير المؤمنين وعصبته (أهله)، قال: فانتم أعمام أمير المؤمنين وعصبته.[12]

وقال خالد بن صفوان يصف الأبلة[13]: «ما راينا أرضاً مثل الأبلة اقرب مسافة ولا أطيب[14] نطفة ولا أوطا مطية، ولا اربح لتاجر، ولا أخفى لعابد».[15]

ومن خطباء البصرة: أبو بكر الهذلي، وهو عبد الله بن أبي سليمان، كان خطيباً بيناً صاحب أخبار وآثار، ذُكر ضمن القُصّاص[16]، وهو محدث روى عن الحسن البصري وابن سيرين وكان من العلماء بأيام الناس، توفي سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٣م.[17]

يعد أبو بكر الهذلي من خطباء هذيل، كان خطيباً قاصاً وعالماً بيناً بالأخبار والآثار، وهو الذي لما فاخر أهل الكوفة قال: لنا الساج والعاج والديباج والخراج والنهر العجاج.[18]

روى الجاحظ[19] عن الهذلي، بقوله: «وحدثنا أبو بكر الهذلي، واسمه سُلمِيٌّ...»، وقال[20]: «وعن أبي بكر الهذلي، واسمه سلمي...». ولعل سلمي هذا شهرته التي اشتهر بها، أو كنيته التي كُني فيها، في الأعم الأرجح وليست اسمه الصريح.

ومن خطباء البصرة ومتكلميها: الأحنف بن قيس زعيم قبيلة بني تميم في البصرة. وهو الذي قال لأهل الكوفة: «نحن أغذ منكم برية وأعظم منكم بحرية وأبعد منكم سرية وأكثر منكم ذرية».[21] وجاء في صيغة أخرى[22]: «نحن أبعد منكم

(١٢) الجاحظ. البيان والتبيين مجلدا، ج١/ ٣١٩، الدينوري. عيون الأخبار مجلدا/ ٢٤٩.
(١٣) هي مدينة على شاطئ دجلة جنوبي العراق (شط العرب)، وهي أقدم من البصرة. حسن السندوبي، محقق البيان والتبيين مجلد١، ج٦٣٧/٢ هامش.
(١٤) عند الدينوري: أعذب. عيون الأخبار مجلد٢٥٣/١، والنطفة: الماء الصافي أو الكثير. السندوبي. المرجع نفسه والصفحة.
(١٥) الجاحظ. البيان والتبيين مجلد ١، ج٦٣٧/٢، ابن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار مجلد ٢٥٣/١.
(١٦) المصدر نفسه مجلد ١، ج٣٤١/١.
(١٧) حسن السندوبي، محقق البيان والتبيين مجلد ١،ج٤١٩/٢ هامش.
(١٨) الجاحظ. البيان والتبيين مجلد ١، ج٣٣٣/١، راجع عن قوله في النص: إحالة رقم (٨) وهامشها، وورد قوله في رواية أخرى فيها بعض الاختلاف، راجع إحالة رقم (٩) وهامشها من بحثنا هذا، وكذلك إحالة رقم (١٧) وهامشها.
(١٩) الجاحظ. البيان والتبيين مجلد١، ج٥٠٦/٢.
(٢٠) المصدر نفسه مجلد٢، ج٨٩١/٣.
(٢١) الجاحظ. كتاب البلدان ص ٤٩٧، راجع هامش (١٨) من بحثنا هذا.
(٢٢) الجاحظ. البيان والتبيين مجلد (١)، ج٤٥٨/٢ راجع هامش (١٨) من بحثنا هذا.

سرية، وأعظم منكم تجربة [بحرية]، وأكثر منكم ذرية، وأعذى منكم برية»، وذكر الجاحظ[1] قول الأحنف بصيغة ثالثة: «نحن أعذى منكم برية، وأكثر منكم بحرية، وأبعد منكم سرية، وأكثر منكم ذرية».

ويتضح لنا من اختلاف النص هذا، المنسوب إلى الأحنف بن قيس التميمي أن الصيغ الثلاث التي أوردها الجاحظ فقط في ثلاثة مؤلفات له، تدلل على معنى واحد متقارب يتركز على المفاخرة بمواصفات مدينة البصرة التي تميزت بها على مدينة الكوفة.

أما بخصوص خطباء ومتكلمي أهل الكوفة، فلم نطلع على كثير منهم، سوى ما يتعلق بابن عياش الهمداني، الذي قال لأبي بكر الهذلي، يوم فاخره عند أبي العباس السفاح- وذكرت عنده الكوفة والبصرة-:«إنما مثل الكوفة مثل اللهاة من البدن، يأتيها الماء ببرده وعذوبته، ومثل البصرة[2] مثل المثانةيأتيها الماء بعد تغير وفساد».[3] وقد سبق أن ذكرنا هذا النص منقولاً عن ابن قتيبة الدينوري، وهنا نقلناه عن ابن عبد ربه الأندلسي، لبيان الاختلاف بين النصين، وهو اختلاف بسيط بينها في الفقرة الأخيرة منه فقط

٤. أقوال في البصرة:

حظيت مدينتا البصرة والكوفة بأقوال متنوعة في مدحهما وذمهما، سنشير إلى أبرزها، وقد حفظت لنا كتب التراث هذه الأقوال، وهي تمثل لوناً من ألوان أدبنا العربي الخالد، وجزءاً من مسيرة تراثنا العزيز.

لعل الجاحظ يتصدر مؤلفي التراث العربي- الإسلامي الرواد في الحديث عن البصرة، فهو بصري المولد والنشأة والثقافة، حفظ لنا في مؤلفاته العديدة كثيراً من الكنوز الثمينة، المتمثلة بمأثور الكلام العربي عن البصرة، له ولغيره من الكتاب والأدباء، وهي تمثل ثروة أدبية تراثية خالدة، وقد سبق لنا أن نقلنا عن الجاحظ روايته لنماذج من المأثورات التراثية عن مدينةالبصرة رواها ونقلها ودونها في مؤلفاته.

يقول الجاحظ[4]: وكان يقال الدنيا بصرة، وقال الخليل بن بن أحمد (الفراهيدي) في وصف القصر المذكور[5] بالبصرة: (بسيط)

زُر وادي القصر نعم القصر والوادي
لا بد من زورة عن غير ميعاد
ترقى بها السفن والظلمان واقفة
والضب والنون والملاح والحادي[6]

ومن أتى هذا القصر وقصر أنس بن مالك، رأى أرضاً كالكافور، وتربة ثرية، ورأى ضباً يحترش، وغزالاً يقتنص، وسمكاً يصاد، ما بين صاحب شص وصاحب شبكة، ويسمع غناء ملاح على سكانه، وحُداء جَمّال على بعيره.

قالوا: وفي أعلى جبانة البصرة موضع يقال له: الحزيز، يذكر الناس أنهم لم يروا قط هواء أعدل، ولا نسيماً أرق، ولا ماءً أطيب منها في ذلك الموضع.

وقال جعفر بن سليمان بن علي الهاشمي: العراق عين الدنيا، والبصرة عين العراق، والمربد عين البصرة، وداري عين المربد.[7]

وقال ابن أبي عيينة المهلبي يذكر قصرأنس (بن مالك) بالبصرة:

فيا حُسنَ ذاك القصر قصراً ونزهة
أ فيح سهل غير وعر ولا ضَنك
بغرس كابكار الجواري وتربة
كأن تراها ماء ورد على مسك
كأن قصور الأرض ينظرنَ حوله
إلى ملك موفٍ على منبر الملك
يُدِلُّ عليها مستطيلاً بحُسنه
ويضحك منها وهي مطرقة تبكي[8]

(١) رسائل الجاحظ (الأوطان والبلدان)، ج٤، ق١٣٨/٢، راجع هامش (١٨) من بحثنا هذا.

(٢) جاء عند ابن قتيبة الدينوري: والبصرة بمنزلة المثانة يأتيها الماء بعد تغيره وفساده. عيون الأخبار مجلد ٢٥٢/١. راجع هامش (١٥) وقد ذكرنا النص منقولاً عنه.

(٣) ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٢٦٥/٦، راجع إحالة رقم (١٥) وهامشها من بحثنا هذا.

(٤) كتاب البلدان ص٤٩٧-٤٩٨، رسائل الجاحظ (الأوطان والبلدان)، ج٤، ق١٣٨/٢-١٣٩، مع ملاحظة بعض الاختلافات البسيطة بينهما.

(٥) هو قصر أوس بن ثعلبةبن زفر بن وديعة، ولي خراسان في الدولة الأموية، وبالبصرة أيضاً قصر أنس بن مالك خادم رسول الله (ص). عبد السلام محمد هارون (المحقق). رسائل الجاحظ (الأوطان والبلدان)، ج٤، ق١٣٨/٢ هامش.

(٦) ذكر الدينوري هذين البيتين من بحر البسيط، وسبقهما بالقول: ((وقال الخليل في ظهر البصرة مما يلي قصر أوس من البصرة)). عيون الأخبار مجلد ٢٤٩/١.

(٧) راجع عن قول جعفر بن سليمان هذا، فضلاً عن هامش رقم (٤١): الدينوري. عيون الأخبار مجلد٢٥٣/١-٢٥٤، ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٢٦٦/٦ (كتاب طبائع الانسان والحيوان تحت عنوان: تفاضل البلدان)، وذكرا: دارين، بدلاً من: داري عين المربد، ونرجح أن ما ذكرناه عن الجاحظ في العبارة: وداري عين المربد، هو الصحيح.

(٨) الدينوري. عيون الأخبار مجلد ٢٥٣/١.

عقد الجاحظ[1] فصلاً يوضح فيه محاسن البصرة ومميزاتها، مقارنة مع غيرها من المدن وخصوصاً مدينة الكوفة، إذ يقول: «والفرات خير من ماء النيل[2]. وإما دجلة فإن ماءها يقطع شهوة الرجال. ويذهب بصهيل الخيل، ولا يذهب بصهيلها إلا مع ذهاب نشاطها، ونقصان قواها؛ وان لم يتنسم النازلون عليها أصابهم قحول في عظامهم، ويُيبس في جلودهم.

وجميع العرب النازلين على شاطىء دجلة في بغداد إلى بلد لا يرعون الخيل في الصيف على أواريها على شاطئ دجلة، ولا يسقونها من مائها، لما يخاف عليها من الصُدام، وغير ذلك من الآفات... وذلك أن ماء دجلة مختلط وليس هو ماءً واحداً...

فإن كان هذا فضيلة مائنا على ماء دجلة فما ظنك بفضله على ماء البصرة، وهو ماء مختلط من ماء البحر ومن الماء المستنقع في أصول القصب والبردي؟ قال الله تعالى: «هذا عَذبٌ فرات وهذا مِلحٌ أجاج».[3] والفرات أعذبها عذوبة، وإنما اشتق الفرات لكل ماء عذب، من فرات الكوفة».

وفي فصل آخر من رسالة للجاحظ[4]- الأوطان والبلدان- يقول، رداً على أهل الكوفة بما نصه: «زعم أهل الكوفة أن البصرة أسرع الأرض خراباً، وأخبثها تراباً وأبعدها من السماء وأسرعها غرقاً، ومفيض مائها البحر، ثم يخرج ذلك إلى البحر الأعظم. وكيف تغرق، وهم لا يستطيعون أن يوصلوا ماء الفيض إلى حياضهم إلا بعد أن يرتفع ذلك الماء في الهواء ثلاثين ذراعاً، في كل سقاية بعينها، لا لحوضٍ بعينه...

قال: وهم يعيبون ماء البصرة، وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطين والرمل المشوب بماء بغداد والكوفة، لطول مقامه بالبطيحة، وقد لان وصفا ورقّ... ويدل على صلاح مائهم كثرة دورهم، وطول أعمارهم، وحُسن عقولهم، ورفق أكفهم، وحذقهم لجميع الصناعات، وتقدمهم في ذلك لجميع الناس.

ويستدل على كرم طينهم ببياض كيزانهم وعذوبة الماء البائت في قِلالهم، وفي لون آجرهم، كانما سُبِك من مُح بيض. وإذا رأيت بناءهم وبياض الجص الأبيض بين الآجر الأصفر لم تجد لذلك شَبهاً أقرب إلى الفضة بين تضاعيف الذهب. فإذا كان زمان غلبة ماء البحر فإن مستقاهم من العذب الزلال الصافي، النمير في الأبدان، على أقل من فرسخ، وربما كان أقل من ميل».[5]

كان توفير المياه العذبة الصالحة للشرب، من المشاكل التي واجهت ولاة البصرة منذ أول تأسيسها؛ لأن مياه البحر المالحة كانت تؤثر في عذوبة شط العرب، فكان لا بد لأهل البصرة من الاعتماد على مياه البطيحة، التي تقع في أطرافها الشمالية، وقد حفر لهذا الغرض نهر عدي، ونهر ابن عمر، لتوفير الماء العذب في البطيحة.[6]

ونستدل مما ذكرناه نقلاً عن الجاحظ في كتابيه: البلدان، ورسالة (الأوطان والبلدان)، مدى انحيازه إلى مدينته البصرة ومدحها والدفاع عنها، وبيان محاسنها وفضائلها، لكننا فضلنا ترك ماذكره من ذم الكوفة ونهرها؛ لتدوينها في المبحث الخاص عما قيل عن الكوفة ضمن دراستنا هذه.

لقد عبر الجاحظ تعبيراً وجدانياً عن حبه وافتتانه بمدينته مدينة البصرة، وعقد فصولاً في كتابه: (البلدان) عنها، ونشرت ضمن رسائله، وهي رسالته المسماة: الأوطان والبلدان، ولعلنا ذكرناهما سوية؛ لاختلاف زمان نشرهما واتماماً للفائدة العلمية، فيما يتعلق ببيان مفاتن البصرة ومحاسنها وفضائلها كما عبر عنها ابنها الجاحظ

❖ ❖ ❖

عقد الجاحظ[7] فصلاً عن البصرة، قال فيه: «وليس في الأرض بلدة أرفق بأهلها من بلدة لايعز بها النقد، وكل مبيع بها يمكن... والأحواز، وبغداد، والعسكر، يكثر فيها الدراهم ويعزفيها المبيع لكثرة عدد الناس وعدد الدراهم.

وبالبصرة الأثمان ممكنة والمثمنات ممكنة، وكذلك الصناعات، وأجور أصحاب الصناعات، وما أظنك ببلدة يدخلها في البادي من أيام الصرام إلى بعد ذلك بأشهر، مابين ألفي سفينة تمر أو أكثر في كل يوم، لايبيت فيها سفينة واحدة، فان باتت فإنما صاحبها هو الذي يبيتها، لأنه لو كان حط في كل ألف رطل قيراطاً لانتسفت انتسافاً.

ولو أن رجلً ابتنى داراً يتممها ويكملها ببغداد، أو بالكوفة، أو بالأحواز، وفي موضع من هذه المواضع، فبلغت نفقتها مائة ألف درهم، فإن البصري إذا بني مثلها بالبصرة لم ينفق

(١) رسائل الجاحظ (الأوطان والبلدان)، ج٤، ق٢/ ١٣٦-١٣٨.

(٢) يعني: نيل الكوفة، وهو خليج كبير يتخلج من الفرات، حفره الحجاج بن يوسف وسماه باسم نيل مصر. عبد السلام محمد هارون. محقق رسائل الجاحظ ج٤، ق١٣٦/٢ هامش.

(٣) القران الكريم. سورة الفرقان ٥٣/٢٥.

(٤) رسائل الجاحظ ج٤، ق١٣٩/٢-١٤٣، راجع أيضاً: الجاحظ. كتاب البلدان ص٤٩٨-٥٠٠.

(٥) راجع عن النص: ((قال: وهم يعيبون ماء البصرة... أقل من ميل)). الجاحظ. كتاب البلدان ص٤٩٩-٥٠٠.

(٦) العلي. خطط البصرة، مجلة سومر، (بغداد، ١٩٥٣)، ص٧٥ -٧٧، نقلاً عن: هامش كتاب البلدان للجاحظ ص ٥٠٠.

(٧) رسائل الجاحظ (الأوطان والبلدان)،ج٤،ق١٤٤/٢-١٤٥.

خمسين ألفاً؛ لأن الدار إنما يتم بناؤها بالطين واللبن، وبالآجر والجص، والاجذاع والساج والخشب، والحديد والصناع، وكل هذا يمكن بالبصرة على الشطر مما يمكن في غيرها. وهذا معروف.

ولم نرَ بلدة قط تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجماجم [الناس] بها إلا البصرة: طعامهم أجود الطعام، وسعرهم أرخص الأسعار، وتمرهم أكثر التمور، وريع دبسهم أكثر، وعلى طول الزمان أصبر، يبقى تمرهم الشهريز عشرين سنة، ثم بعد ذلك يخلط بغيره فيجيء له الدبس الكثير، والعذب الحلو، والخائر القوي.

ومن يطمح من جميع أهل النخل أن يبيع فسيلةً بسبعين ديناراً، أو بحَوُنة [ضرب من التمر] بمائة دينار، أو جريباً بالف دينار غير أهل البصرة».؟

أما الفصل الأخير الذي جاء تحت رقم (١٨)، حول مفاتن البصرة ومحاسنها، فقال فيه الجاحظ[١]: «ولأهل البصرة المد والجزر على حساب منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئا. ياتيهم الماء حتى يقف على أبوابهم؛ فإن شاؤا أذنوا، وإن شاؤا حجبوه.

ومن العجب لقوم يعيبون البصرة لقرب البحر والبطيحة؛ ولو اجتهد أعلم الناس وأنطق الناس أن يجمع في كتاب واحد منافع هذه البطيحة، وهذه الأجمة، لما قدر عليها. قال زياد: قصبة خير من نخلة.

وبحق أقول: لقد جهدت جهدي أن أجمع منافع القصب ومرافقه وأجناسه، وجميع تصرفه وما يجيء منه، فما قدرت عليه حتى قطعته وأنا معترف بالعجز، مستسلم له.

فاما بحرنا هذا فقد طمّ على كل بحر وأوفى عليه؛ لأن كل بحر في الأرض لم يجعل الله فيه من الخيرات شيئاً، إلا بحرنا هذا، الموصول ببحر الهند إلى ما لا تذكر.

وانت تسمع بملوحة ماء البحر، وتستسقطه وتُزري عليه. والبحر هو الذي يخلق الله تعالى منه الدُر الذي بيعت الواحدة منه بخمسين ألف دينار؛ ويخلق في جوفه العنبر، وقد تعرفون قَدَر العنبر، فشيء يولد هذين الجوهرين كيف يُحَقر؟

ولو إنا أخذنا خصال هذه الأجمة وما عظّمنا من شأنها، فقذفنا بها في زاوية من زوايا بحرنا هذا لضلّت حتى لا نجد لها حساً، وهما لنا خالصان دونكم، وليس يصل إليكم منها شيء إلاّ بسببنا وتعدينا فضل عَنا.

(١) المصدر نفسه ص١٤٥-١٤٧.

وقال بعض خطبائنا: نحن أكرم بلاداً، وأوسع سواداً، [القرى والريف] وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً وأكثر خراجاً.[٢]

لأن خراج العراق مائة الف الف واثناعشر الف الف، وخراج البصرة من ذلك ستون الف الف، وخراج الكوفة خمسون الف الف».

وصف الجاحظ[٣] أنهار البصرة ونخيلها، بقوله: «وقد تعلمون كثرة عدد أنهار البصرة، وغلبة الماء، وتطفح الأنهار. وتبقى النخلة عشرين ومائة سنة وكانها قدح. [السهم قبل أن يراش وينصل] وليس يُرى من قرب القرية التي يقال لها النيل إلى أقصى أنهار الكوفة نخلة طالت شيئا إلا وهي معوجة كالمنجل».

ومما لا ريب فيه أن الجاحظ يدلل على جودة نخيل البصرة؛ بسبب كثرة عدد أنهارها وغلبة الماء وتطفح الأنهار، وأن نخيل البصرة يُعمّر طويلاً إلى ١٢٠ سنة، في حين قارن ذلك مع نخيل الكوفة والمنطقة الممتدة حتى قرية النيل قرب بابل، وعلى طول هذه المسافة كانت نخيلها الطويلة معوجة اي منحنية كالمنجل، بمعنى أن نخيل البصرة -حسب رأي الجاحظ- أفضل كثيراً من حيث القوة وطول العمر والاستقامة مقارنة بحال نخيل الكوفة الذي وصفه بالاعوجاج وشبهه بالمنجل الذي يستخدم لحصاد الزرع.

روى الدينوري[٤] خطبة للخليفة علي بن أبي طالب (عليه السلام) في البصرة بعد وصوله إليها، أوضح فيها مزايا وحسنات هذه المدينة وفضائلها، إذ قال: «... غير أني سمعت رسول الله (ص) يقول: تفتح أرض يقال لها البصرة أقوم الأرضين قبلة، قارئها أقرأ الناس، وعابدها أعبد الناس، وعالمها أعلم الناس، ومتصدقها أعظم الناس صدقة، وتاجرها أعظم الناس تجارة، منها إلى قرية يقال لها الأبلة أربعة فراسخ، يُستشهد عند مسجد جامعها أربعون الفاً، الشهيد منهم يومئذ كالشهيد معي يوم بدر».

الف عمر بن شبة النميري المتوفى سنة ٢٦٢هـ/ ٨٧٥م كتاباً عن تاريخ البصرة، وصفه ابن حوقل[٥] بقوله: «وللبصرة

(٢) هذا الكلام لأبي بكر الهذلي. راجع إحالة رقم:٩ وهامشها، إحالة رقم: ١٦ وهامشها، وقيل إنه منسوب إلى خالد بن صفوان، راجع إحالة رقم:٦ وهامشها من بحثناهذا، والقصة منقولة عن: الحموي. معجم البلدان مجلد١/ ٤٣٨، راجع أيضاً: ناجي. اسهامات ص٢٣٣.

(٣) رسائل الجاحظ ج٤، ق٢/ ١٤٢، كتاب البلدان ص٥٠١.

(٤) عيون الأخبار مجلد ٢٤٧/١-٢٤٨، راجع أيضاً: الحموي. معجم البلدان مجلد ٤٣٦/١.

(٥) صورة الأرض، ص ٢١٤، راجع أيضاً: ناجي. اسهامات ص٢٧٨،الشمري. المؤلفات ...

كتاب يُعرف بكتاب البصرة الفه عمر بن شبة قبل كتاب الكوفة ومكة، يغني عن ذكر شيء من أوصافها، وهذه الكتب موجودة في جميع الأماكن». ومن المؤسف حقاً أن كتاب البصرة هذا أو: تاريخ البصرة لم يصل إلينا ولم يَر النور، ولعله يحتوي معلومات وفوائد مهمة وفريدة عن تاريخ هذه المدينة العربية، التي تعد أول مصر أسس خارج شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام.

عرفت البصرة واشتهرت بكثرة فقهائها ومحدثيها ومتكلميها ونحاتها وشعرائها ومؤرخيها، وقد أشار المقدسي[1]- في هذا المجال - إلى أن البصرة فيها صالحون وزهاد وورعون ومستورون، وفضّلها على مدينة بغداد؛ لرفقتها وكثرة الصالحين بها.

وما وصف الحريري[2] للبصرة، إلا مثال آخر يدعم فكرة دور مدينة البصرة في الحياة الثقافية، فقد ذهب إلى القول: «يا أهل البصرة بلدكم أوفى البلاد طهرة، وأزكاها فطرة وأوسعها دجلة، وأكثرها نهراً ونخلة وأحسنها تفصيلاً وجملة، دهليز البلد الحرام وقبالة الباب والمقام، منكم من استنبط ميزان الشعر واخترعه، وما من فخر إلا ولكم فيه اليد الطولى والقدح المعلى».

وهكذا حظيت البصرة باهتمام منقطع النظير من قبل المؤلفين العرب من الأدباء والمؤرخين والجغرافيين، مما يدلل على أهميتها ومكانتها ومنزلتها العلمية الرفيعة، فضلاً عن أهمية دورها العلمي والفكري الذي أكدناه في بداية بحثنا هذا، وخير ما نختتم به هذا المبحث عن البصرة، إيراد ما ذكره أديبها النابه وابنها البار أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ[3] في مدح مدينته البصرة، إذ قال: بالبصرة ثلاث أعجوبات ليست في غيرها من البلدان، منها: أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد فيقبل عند حاجتهم إليه ويرتد عند استغنائهم عنه،... والأعجوبة الثانية ادعاء أهل أنطاكية وأهل حمص وجميع بلاد الفراعنة الطلسمات، وهي بدون مالأهل البصرة... والأعجوبة الثالثة ان الغربان القواطع في الخريف يجيء منها ما يسود جميع نخل البصرة وأشجارها...

التاريخية عن الكوفة ص١٢٧.

(١) أحسن التقاسيم ص١١٧، راجع أيضاً: ناجي. اسهامات ص٢٦.

(٢) مقامات الحريري (المقامة البصرية)، ص٤٠٥-٤٠٦، الشريشي. شرح مقامات الحريري، ج٣٤٤/٥، ٣٤٦، راجع أيضاً: ناجي.اسهامات ص٢٦-٢٧، ٢٣٣-٢٣٤.

(٣) الحموي. معجم البلدان مجلد٤٣٩/١-٤٤٠، راجع أيضاً: ناجي. اسهامات ص٢٣٣.

٥. أقوال في الكوفة:

أما بخصوص الأقوال التي قيلت عن الكوفة فقد تباينت بين المدح والذم، وسنورد في هذا المبحث أمثلة لتلك الأقوال التي وردت في كتب التراث العربي؛ للتدليل على مكانتها وأهميتها ومنزلتها ودورها العلمي والفكري، فضلاً عن دورها السياسي والعسكري، إذ كانت ثاني مصر انجز إنشاؤه خارج حدود شبه الجزيرة العربية بعد ظهور الإسلام.

وقال محمد بن عمير بن عطارد: «إن الكوفة قد سفلت عن الشام ووبائها، وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مريئة مريعة، عذبة ثرية، إذا أتتنا الشمال ذهبت مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءتنا بريح السواد ووردة وياسمينه وأترجه[4]، وماؤنا عذب وعيشنا خصب».[5]

وجاء هذا النص بصيغة أخرى[6] فيها بعض الاختلاف، ونصه: «وقال محمد بن عمير بن عطارد: الكوفة سفلت عن الشام ورُباها، وارتفعت عن البصرة وعمقها، فهي مريئة مريعة، عذبة ندية؛ وإذا أتتنا الشمال هبت على مسيرة شهر على مثل رضراض الكافور، وإذا هبت الجنوب جاءت بريح السواد ووردة وياسمينه واترجه؛ فماؤها عذب، وعيشها خصب».

يوضح النص صفات الكوفة من حيث موقعها الجغرافي الذي أعطاها مميزات جيدة، فقد انخفضت عن الشام ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها، فهي مريئة مريعة بريئة، عذبة ندية، فإذا هبت عليها ريح الشمال حملت رائحة الكافور الطيبة، وإذا هبت عليها ريح الجنوب حملت الروائح الطيبة من سواد العراق من الورد والياسمين والأترج، وماء الكوفة عذب فرات، وعيشها خصب.

عقد الجاحظ[7] فصلاً من رسالته (الأوطان والبلدان) في معرض مقارنته بين البصرة والكوفة وصفات نخيل كل منهما، إذ يقول: «ونهر الكوفة الذي يسمونه إنما هو شعبة من أنهار [نهر] الفرات، وربما جفّ حتى لا يكون لهم مستقى إلا على راس فرسخ، وأكثر من ذلك، حتى يحفروا الآبار في بطون نهرهم، وحتى يضر ذلك بخضرهم وأشجارهم. فلينظروا أيما اضر وأيما أعيب. وليس نهر من الأنهار التي تصب في دجلة إلا هو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر من نهر الكوفة،

(٤) قال الإمام علي بن أبي طالب (رض): ((مَثَل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب، ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثل التمر طعمها طيب ولا ريح لها)). الدينوري. عيون الأخبار مجلد٥٣٠/٢.

(٥) الدينوري. عيون الأخبار مجلد٢٥٢/١.

(٦) ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٢٦٥/٦.

(٧) رسائل الجاحظ (الأوطان والبلدان)، ج٤، ق١٤١/٢-١٤٣.

وإنما جسره سبع سفائن لا تَمرُ عليه دابة لأنها جذوع مقيدة بلاطين، وما يمشي عليه الماشي إلا بالجهد، فما ظنك بالحوافر والخِفاف والأظلاف؟!.

وعامة الكوفة خراب يباب، ومن بات فيها علم أنه في قرية من القرى ورُستاق من الرساتيق، بما يسمع من صياح بنات آوى، وضُباح الثعالب، وأصوات السباع. وإنما الفرات دمما إلى ما اتصل به إلى بلاد الرقة، وفق ذلك.

فإنما نهرهم فالنيل[1] أكبر منه، وأكثر ماءً، وأدوم جرية.

وقد تعلمون كثرة عدد أنهار البصرة، وغلبة الماء، وتطفح الأنهار. وتبقى النخلة عشرين ومائة سنة وكانها قدح [السهم]. وليس يُرى من قرب القرية التي يقال النيل إلى أقصى أنهار الكوفة نخلة طالت شيئاً إلا وهي معوجة كالمنجل.[2] ثم لم نرَ غارس نخل قط في أطراف الأرض يرغب في فسيل كوفي، لعلمه بخبث مغرسه، وسوء نُشُوه، وفساد تربته، ولؤم طبعه.

وليس لليالي رمضان في مسجدهم غضارة ولابهاء، وليس منار مساجدهم على صُوَر منار البصرة، ولكن على صُوَر منار الملكانية واليعقوبية. ورأينا بها مسجداً خراباً تأويه الكلاب والسباع، وهو يضاف إلى علي بن أبي طالب، رضوان الله عليه.

ولو كان بالبصرة بيت دخله علي بن أبي طالب(عليه السلام) ماراً، لتمسحوا به وعمروه بانفسهم وأموالهم.

وخبّرني من بات أنه لم يرَ كواكبها زاهرة قط وأنه لم يرها إلا ودونها هبوة [غبرة]، وكان في مائهم مزاج دُهن، وأسواقهم تشهد على أهلها بالفقر. وهم أشد بغضاً من أهل البصرة لهم؛ وأهل البصرة هم أحسن جواراً، وأقل بذخاً، وأقل فخراً.

ثم العجب من أهل بغداد وميلهم معهم، وعيبهم إيانا في استعمال السماد في أرضنا ولنخلنا، ونحن نراهم يسمدون بقولهم...».

يتضح لنا من هذا النص أن الجاحظ كان منحازاً انحيازاً واضحاً جلياً إلى مدينة البصرة، ويعيب عيوباً كثيرة مدينة الكوفة، في عدة مجالات، أبرزها: ما يتعلق بانهارهم ونخيلهم وأسواقهم ومساجدهم وسمائهم وكواكبها!! فضلاً عن المباهاة بالبصرة بان أهلها أحسن جواراً وأقل بذخاً وفخراً، واللوم على أهل بغداد لميلهم إلى أهل الكوفة، وعيبهم أهل البصرة، باستخدام السماد في أرضهم ونخلهم، في حين أنهم يسمدون بقولهم بالكساحات ومواد المزابل... وما ذكره الجاحظ لا يقلل أبداً من شان الكوفة ومكانتها وأهميتها، إنما هي مجرد مفاخرات ومباهاة، تعبر عن طبيعة العصر وروحه وقيمه، حيث سادت المفاخرات وتباهى أهل كل مدينة بفضائلها ومحاسنها، وتطور هذا اللون من الأدب إلى كتابة مؤلفات خاصة لكل مدينة، يبين فيها كل مؤلف صفات المدينة وفضائلها، وهي التي عرفت بـ: كتب الفضائل والمفاخرات، وقد درسنا هذه المؤلفات عن مدينة الكوفة في بحث خاص.

إن ما ذكره الجاحظ هو تعبير عن إعجابه وافتتانه بمدينة البصرة، لكن مدينة الكوفة كانت لها أهميتها ودورها المتميز في الجوانب السياسية والعسكرية، فضلاً عن الجانب الفكري، وقد أشاد بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، إذ قال[3] «إن الكوفة دار هجرة مرتين... قال الكوفة حرم نوح وحرم هود وهي حرمنا في آخر الزمان»، وأشاد الخليفة عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) بها، ففي رواية[4] عن الأعمش عن سليم أنه قال: «جمجمة العرب، وكنز الإيمان، ورمح الله في الأرض، ومادة الأمصار». والكوفة علوية، لأنها وطن علي رضي الله عنه وداره.

٦. أقوال مشتركة عن البصرة والكوفة:

ذكرت كتب التراث أقوالاً مشتركة تتعلق بالبصرة والكوفة معاً، نوردها هنا؛ لبيان أهميتها وافتتان المؤلفين بهما، وهي تعبر عن مكانتهما ودورهما في الحياة العربية الإسلامية في جوانبها المختلفة.

قال زياد: الكوفة جارية جميلة لا مال لها، فهي تُخطب لجمالها. والبصرة عجوز شوهاء ذات مال، فهي تخطب لمالها.[5]

وقال الحجاج: الكوفة بكر حسناء، والبصرة عجوز بخراء أوتيت من كل حلي وزينة.[6]

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة: بُصرت البصرة سنة أربع عشرة، وكوفت الكوفة سنة سبع عشرة.[7]

قالوا: وسواد البصرة: الأحواز، وفارس؛وسواد الكوفة: كسكر إلى الزاب إلى عمل حلوان إلى القادسية؛ وهذه كلها من عمل العراق.

---

(١) النيل قرية تقع على نهر النيل، وهو فرع من نهر الفرات، وهي قريبة من بابل، راجع بعد هامش ٤٥.

(٢) ذكرنا أنهار البصرة واختلاف نخيلها عن نخيل الكوفة في نص الفقرة الأخيرة هذه، فضل الكوفة، نقلاً عن: خوري. فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية ص١٠١-١٠٢.

(٣) ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٦/٢٦٥.

(٤) الجاحظ. رسائل الجاحظ، ج٤، ق٢/١٣٦.

(٥) الدينوري. عيون الأخبار مجلد١/٢٥٢، ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٦/٢٦٥.

(٦) الجاحظ. رسائل ج٤، ق٢/١٣٩.

(٧) ابن عبد ربه. العقد الفريد ج٦/ ٢٦٤.

قال الأصمعي: البصرة كلها عثمانية، والكوفة كلها علوية.[1]

وقال الأصمعي: تذكروا عند زياد الكوفة والبصرة، فقال زياد: لو أضللتُ البصرة لجعلت الكوفة لمن دلني عليها![2].

وقال الرازي[3]: «... من العراق الكوفة والبصرة وبغداد، والذي يقول الناس: العراقين، فالعراقان الكوفة والبصرة».

وأما البصرتان: فالكوفة والبصرة.[4] والعراقان: الكوفة والبصرة، سميت بذلك من عراق القِربة وهو الخرز المثني الذي في أسفلها، أي أسفل أرض العرب.

مصادر البحث ومراجعه

أ- المصادر القديمة:

١. القران الكريم.

* ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني، (ت: ٣٦٧هـ/٩٧٧م).

٢. صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، (بيروت، د. ت).

* ابن عبد ربه، أحمد بن محمد، (ت: ٣٢٨هـ/ ٩٣٩م).

٣. العقد الفريد، ج٦ (كتاب طبائع الإنسان والحيوان)، مكتب تحقيق التراث، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة، (بيروت، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م).

* الجاحظ أبو عثمان عمرو بن بحر، (ت: ٢٥٥هـ/٨٦٩م).

٤. البيان والتبيين، مجلد١ (ج١-٢)، مجلد٢ (ج٣-٤)، تحقيق وشرح: حسن السندوبي، إشراف وتصحيح: مصطفى القصاص، دار إحياء العلوم، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م).

٥. رسائل الجاحظ ج٢، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل للطباعة، الطبعة الاولى، (بيروت، ١٤١١هـ/١٩٩١م).

- ج٤، القسم الثاني من الفصول المختارة من كتب الجاحظ اختيار: الإمام عبيد الله بن حسان، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل للطباعة، (بيروت، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

٦. كتاب البلدان، تحقيق: د. صالح أحمد العلي، مطبعةالحكومة، (بغداد، ١٩٧٠م).

* الحريري، القاسم بن علي، (ت: ٥١٦هـ/ ١١٢٢م).

٧. مقامات الحريري، الطبعة السادسة، (بولاق، ١٣٠٠هـ).

* الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت: ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م).

٨. معجم البلدان، مجلد ٤،١، دار صادر، الطبعة الثانية (لونين)، (بيروت، ١٩٩٥م).

* الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، (ت: ٢٧٦هـ/٨٨٩م).

٩. عيون الأخبار، مجلد ١-٢، تحقيق: د. محمد الإسكندراني، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م).

* الرازي، أبو العباس أحمد بن عبد الله بن محمد، (توفي بعد سنة ٤٦٠هـ/١٠٦٨م).

١٠. تاريخ مدينة صنعاء، تحقيق: د. حسين عبد الله العمري، دار الفكر المعاصر/ بيروت ودار الفكر/ دمشق، الطبعة الثالثة،(دمشق، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م).

* السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور، (ت: ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م).

١١. الأنساب، ج٥، تعليق: عبد الله عمر البارودي، دار الجنان، الطبعة الأولى، (بيروت، ١٩٨٨م).

* المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد، (ت: ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م).

١٢. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء: م. ج. دي غويه، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، (ليدن، ١٩٠٦م).

ب- المراجع الحديثة:

* جعيط هشام.

١٣. اليمنيون في الكوفة في القرن الأول الهجري، مجلة التراث، العدد: ٥، مركز الدراسات والبحوث اليمني/ فرع عدن (كريتر)، (عدن، ١٩٩٢م).

* خوري، إبراهيم.

١٤. فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية (الجغرافيا وملحقاتها)، (دمشق، ١٣٨٩هـ/١٩٧٠م).

* الزبيدي، د. محمد حسين.

(١) المصدر نفسه ص٢٦٦، راجع أيضاً: الحموي. معجم البلدان مجلد١/٤٣٧.

(٢) تاريخ مدينة صنعاء ص٦٧، راجع: إحالة رقم: ٣ وهامشها من بحثنا هذا.

(٣) الحموي. معجم البلدان مجلد١/٣٤٠.

(٤) المصدر نفسه مجلد ٤/٩٣.

١٥. الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الكوفة في القرن الأول الهجري، المطبعة العالمية، (القاهرة، ١٩٧٠م).

* الشمري، د. محمد كريم إبراهيم.

١٦. استقرار قبيلة همدان في الكوفة حتى نهاية العصر الأموي، مجلة الذخائر، العدد: ٨ (عدد خاص عن الكوفة)، السنةالثانية، (بيروت، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م).

١٧. البصرة في نصوص تاريخ مدينة صنعاء للرازي، سلسلة تراث البصرة رقم: ١٣، منشورات المركز الثقافي بجامعة البصرة، (البصرة، ١٩٩١م).

١٨. المؤلفات التاريخية عن الكوفة حتى أوائل القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مجلة كليات التربية/ جامعة عدن، العدد: ٥، (عدن، أغسطس ٢٠٠٣م).

* العلي، د. صالح أحمد.

١٩. خطط البصرة ومنطقتها، مطبعة المجمع العلمي العراقي،(بغداد، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م).

* ناجي، د. عبد الجبار.

٢٠. إسهامات مؤرخي البصرة في الكتابة التاريخية، منشورات دار الشؤون الثقافية العامة، (بغداد، ١٩٩٠م).

٢١. دراسات في تاريخ المدن العربية الإسلامية،(البصرة، ١٩٨٦م).

* * *

صورة لباحة مسجد الكوفة المعظم وتظهر فيها قبة مسلم بن عقيل عليه السلام